## شعلة عيدٍ تُعيد الحياة إلى بيوت الصفيح في قرية الرمّان

**متطوعون من «أيادي الخير» يرممون ٤٣ منزلاً ويوزعون مدافئ وبطانيات قبل حلول الشتاء**

بقلم: نادية الحلبي

الرمّان – ٢ كانون الأول ٢٠٢٠: في صباح بارد من أيام تشرين الثاني، وقف أهالي قرية الرمّان الشرقية يراقبون شاحنة صغيرة تصعد الطريق الترابي المؤدي إلى حيّ الصفيح، حاملة على متنها ألواحاً خشبية وأكياس إسمنت وعشرات المتطوعين الذين جاؤوا من مدينة عين الصفصاف البعيدة. لم يكن أحد يتوقع أن يصل أحد إلى هذا الحيّ الذي يقطنه نحو ٢١٠ أشخاص في ٤٣ منزلاً من الصفيح والكرتون، بعد أن تجاهلته الخرائط الرسمية لسنوات طويلة.

وكان في مقدمة الوافدين فريق «أيادي الخير» التطوعي، الذي تأسس قبل ثلاث سنوات على يد مجموعة من طلاب الجامعة وموظفين شبان، وقرر أن يبدأ عمله الأول في أكثر الأماكن حاجة. وقالت رئيسة الفريق، سلمى الدباغ، وهي تشير إلى الجدران المتصدعة: «لم نختر هذا المكان لأنه الأسهل، بل لأنه الأكثر نسياناً. هنا لا يحتاج الناس إلى وعود، بل إلى من يقف معهم يداً بيد».

وتوزعت المهام منذ الساعات الأولى على ثلاثة فرق: فريق للترميم، وآخر للتدفئة، وثالث للإسعاف والدعم النفسي. وبحلول الظهر كان أكثر من ٦٠ متطوعاً قد وصلوا، بينهم أطباء وممرضون جاؤوا بحقائب الأدوية، إلى جانب عشرات الأطفال الذين تجمعوا حول الشاحنة بفضول واضح. وقال الطبيب أيمن الشوربجي، وهو يفتح حقيبته على طاولة مؤقتة: «كثير من هؤلاء الأطفال لم يروا طبيباً منذ سنوات، والبرد وحده كفيل بأن يمرض أحدهم في أي ليلة».

وتولى فريق الترميم استبدال ٢٧ سقفاً مهترئاً وسد الفجوات في ١٩ جداراً بالطوب والإسمنت، فيما عمل فريق التدفئة على توزيع ٣٠٠ مدفأة تعمل بالكاز و٤٥٠ بطانية سميكة، إضافة إلى كميات من الحطب تكفي لأسبوعين. أما فريق الإسعاف فقد نصب خيمة طبية مجهزة بالأدوية الأساسية، وأعلن عن زيارات منتظمة كل يوم جمعة. وقالت المتطوعة رنا العبدلي، التي تولت تنسيق الفرق: «كنا نعرف أن الحاجة كبيرة، لكننا لم نتوقع أن نرى أطفالاً ينامون على الأرض مباشرة. هذا وحده كان يستحق الرحلة».

وعلى الرغم من الحماس الواضح، لم تخل الأيام الثلاثة من صعوبات. فقد اضطر الفريق إلى تأجيل العمل يوماً كاملاً بسبب أمطار غزيرة جرفت جزءاً من الطريق الترابي، وتعذر خلالها وصول الشاحنات المحملة بالمواد. كما واجه المتطوعون رفضاً من بعض السكان الذين خشوا أن يؤدي الترميم إلى رفع الإيجارات أو طردهم لاحقاً، قبل أن يتدخل المختار ويؤكد للجميع أن المشروع لا يهدف إلى تغيير ملكية أي منزل.

وقد تأثرت أم حسن الزعبي، وهي أرملة تعيل ستة أطفال، بالمشهد وهي تراقب العمال من باب منزلها. وقالت وهي تمسح دموعها بطرف حجابها: «عشت هنا ١٢ شتاءً، وكنت أظن أن هذا البيت سيسقط فوق رؤوسنا قبل أن يسقط الثلج. اليوم شعرت أن أحداً يراني أخيراً». وأكد المنسق العام للفريق أن الحملة ستستمر حتى نهاية العام، وأن الخطوة التالية تشمل تركيب ألواح شمسية لتوفير الكهرباء في ٢٠ منزلاً، مشيراً إلى أن التبرعات المالية ما تزال مفتوحة.

وفي ختام اليوم الأول، جلس الأهالي مع المتطوعين حول موقد نار صغير لتناول العشاء، في مشهد بدا أقرب إلى احتفال منه إلى عمل إغاثي. وقال أحد الشبان، وهو يمسك بكوب شاي ساخن: «لسنوات طويلة كنا نشعر أننا نعيش على هامش كل شيء، واليوم فقط شعرنا أن أحداً يعرف أن هنا بشراً». وبدا واضحاً أن ما قدمه الفريق لم يكن مجرد ترميم جدران، بل محاولة لإعادة الكرامة إلى حيّ كاد أن يُنسى تماماً.

وفي اليوم الثاني، انتقل الفريق إلى الجهة الشرقية من الحيّ، حيث تتركز أكثر المنازل تضرراً من الرطوبة والبرد. وهناك واجه المتطوعون تحدياً جديداً تمثل في ضيق الأزقة التي لا تتجاوز أحياناً متراً واحداً، ما اضطر العمال إلى نقل المواد على الأكتاف بدلاً من الشاحنات. وقال المهندس المشرف على الورشة، عادل منصور، إن الفريق اعتمد نظام «الخط البشري» لتمرير الأكياس والألواح من يد إلى يد، مؤكداً أن هذه الطريقة أبطأ لكنها الوحيدة الممكنة في هذه الأماكن.

وتولت فرق التدفئة توزيع المدافئ والبطانيات وفق قائمة أعدها الأهالي أنفسهم، بعد أن رفض الفريق منح المساعدات بشكل عشوائي. وقالت المتطوعة هالة السقا، التي كانت تشرف على توزيع الحطب: «أردنا أن نضمن أن كل عائلة تحصل على ما يكفيها فعلاً، لا على ما يمكن أن يُباع في السوق». وأضافت أن الفريق سجل أسماء المستفيدين وأرقام هواتفهم للمتابعة خلال فصل الشتاء.

وشهد اليوم الثاني أيضاً تدخل الطبيب أيمن الشوربجي، الذي أمضى ساعات طويلة في الخيمة الطبية، حيث عالج ٩٣ مريضاً معظمهم من الأطفال المصابين بالإسهال والتهابات الجهاز التنفسي العلوي. وقال وهو يغسل يديه بالماء البارد: «كنا نتوقع حالات برد، لكننا وجدنا أمراضاً كان يمكن الوقاية منها بقليل من الماء النظيف والتوعية». وأعلن أن الفريق سيعود في ١٥ كانون الأول لإجراء فحوص متابعة للحالات المزمنة.

وفي المساء، نظم الأهالي حفلاً صغيراً على شرف المتطوعين، قدموا خلاله أغاني شعبية وأطباقاً من المطبخ المحلي، في أجواء بدت أقرب إلى عرس منها إلى عمل إغاثي. وقال المختار في كلمته: «هذا الحيّ كان يُذكر دائماً بالسوء، واليوم سيُذكر بأن أحداً جاء ولم يتركه». وأكد أن المجلس المحلي سيتبنى المشروع رسمياً ويطالب بإدراج الحيّ في خطط التنمية المقبلة.

وبحلول مساء الخميس، كان العمل قد انتهى في ٣١ منزلاً، فيما تبقى ١٢ منزلاً أخرى تحتاج إلى استكمال بسبب نفاد المواد. وقررت الفرق العودة في ١٥ كانون الأول لإنهاء المهمة، على أن يبدأ فريق التدفئة بتوزيع الدفعة الثانية من المدافئ قبل منتصف الشهر. وقال أحد المتطوعين وهو يحمل آخر كيس إسمنت فارغ: «لم نأتِ لنغادر بسرعة، بل لنبقى حتى يشعر الجميع أنهم ليسوا وحدهم في هذا الشتاء».

وفي ختام اليوم الثاني، جلس الأهالي مع المتطوعين حول موقد نار صغير لتناول العشاء، في مشهد بدا أقرب إلى احتفال منه إلى عمل إغاثي. وقال المختار في كلمته: «هذا الحيّ كان يُذكر دائماً بالسوء، واليوم سيُذكر بأن أحداً جاء ولم يتركه». وأكد أن المجلس المحلي سيتبنى المشروع رسمياً ويطالب بإدراج الحيّ في خطط التنمية المقبلة. وقررت الفرق العودة في ١٥ كانون الأول لإنهاء المهمة، على أن يبدأ فريق التدفئة بتوزيع الدفعة الثانية من المدافئ قبل منتصف الشهر. وقال أحد المتطوعين وهو يحمل آخر كيس إسمنت فارغ: «لم نأتِ لنغادر بسرعة، بل لنبقى حتى يشعر الجميع أنهم ليسوا وحدهم في هذا الشتاء».